ابستيمولوجيا النص في التراث البلاغي العربي –دراسة في المكون الخاص والرافد–

الأستاذة كلاتمة خديجة
جامعة العربي بن مهيدي- ام البواقي

ابستيمولوجيا النص في التراث البلاغي العربي موضوع تتجاذبه أطراف و خلفيات معرفية مختلفة الأصول تفاعلت فيها بنيات لغوية وغير لغوية أسهمت بشكل لافت للنظر في التأسيس لنظرية لسانية نصية تقارب و تشاكل النظريات اللسانية النصية الغربية الحديثة ، ولعل هذا الأمر راجع للوعي المعرفي الذي تميز به علماء البلاغة العربية وهم يستقصون أسرار ودقائق اللغة العربية عبر مراحل زمنية متعاقبة ، كما كان للفلسفة والمنطق دور بارز في بلورة التفكير البلاغي العربي الجديد و إعادة توجيهه مما أكسبه الطابع الفلسفي أحيانا والمنطقي أحيانا أخرى ، وهذا ما نجده واضحا في ثنايا كتب التراث البلاغي المتأثرة بالفكر الفلسفي و المنطقي.

و الجدير بالذكر أن المحور الأساسي الذي قامت عليه بحوث هذه الأنساق المعرفية العديدة محور أساسي واحد إنه النص الديني أو القرآن الكريم كلام الله المنزه عن الخطأ و المعجز بألفاظه ومعانيه ، الذي نزل تحديا للعرب فيما برعوا فيه من بلاغة القول وفصاحة اللسان ، و ليس هذا و حسب بل كان بيانا للناس في أمور الدّين و الدّنيا .

إن نصا كهذا النص في عظمته وقوة إعجازه استقطب اهتمام العلماء من عرب وعجم لغويين و نحاة و بلاغيين و فقهاء و متكلمين على اختلاف مذاهبهم وتياراتهم الفكرية؛ حيث أخذوا ينهلون من هذا النص الكامل ليؤسسوا علوما و معارف عربية عديدة تبحث في مواطن الإعجاز فيه و تستنبط الضوابط و الاحكام التشريعية المتعلقة بأمور الدين والحياة، كما تبحث في عوالم الإنسان الروحية و المادية، أما ميزة هذه العلوم

والمعارف أنها كانت متداخلة حيث كان العلماء موسوعيين فقد نجد مثلا عالم الاصول فقيها و لغويا و نحويا و بلاغيا حيث لا تكاد تخلو مباحث هذا العلم من أي مبحث من مباحث العلوم التي ذكرنا ؛ فاقل ما يمكن أن نصفها به أنها علوم متكاملة.

و البلاغة العربية أحد أهم هذه العلوم التي تداخلت فيها مختلف الأنساق المعرفية البيانية منها و البرهانية حيث كان البلاغي نحويا و لغويا و أديبا و عالما بعلوم القرآن والسنة ومطلعا على العلوم العقلية من منطق و فلسفة ، لذا جاءت المباحث البلاغية مشبعة بهذا المزيج من المعارف ومدار كل هذا الوصول إلى ما يؤسس نظرية بلاغية للقول أعلاه درجة كلام الله و أدناه كلام البشر من شعر ونثر. فالمنعم في النظر إذن في هذه الأنساق يدرك أن الحضارة العربية حضارة قامت معالمها على نص كامل معجز فكيف لا نجد فيه ما يؤسس لنظرية عربية نصية خالصة . وفيما يلي سنعرض لأهم الأنساق المعرفية الخاصة و الرافدة التي بنيت عليها هذه النظرية العربية ، و لعل أول هذه الأنساق التي سنعرض لها " علم النحو" بما أن عماد النص هو نسقه البنيوي .

1/علم النحو :

تجمع الدراسات و البحوث اللسانية العربية المعاصرة على أن نظرية "النظم" لعبد القاهر "الجرجاني" (ت471هـ) نظرية تؤسس لمفهوم النص البياني على غرار النظريات اللسانية النصية الغربية ، و تضع الشروط الملائمة لتحقيق تماسكه الداخلي و الخارجي الذي يضمن تفاعله مع المتخاطبين لتحقيق الأغراض و المقاصد ، ولعل المباحث البلاغية التي أوردها "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه دلائل الاعجاز خير دليل يثبت صحة ما توصلت اليه الدراسات النصية العربية ، و نحن هنا لسنا بصدد إثبات مظاهر النصية في هذه النظرية التي لا يكاد بحث من البحوث اللغوية العربية يخلو منها بقدر ما نحاول استنباط النسق المعرفي الأساسي الذي قامت عليه.

هي نصوص كثيرة يوردها "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه دلائل الإعجاز تثبت قيام نظرية النظم على " علم النحو" فقد أعاد الجرجاني للنحو مكانته ومركزه بعد أن أنكر فضله

كثير ممن تأثروا بالفلسفة والمنطق من النحاة يقول الجرجاني « و أما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه . إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وان الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، انه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام و رجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، و لا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه ، و إلا من غالط في الحقائق نفسه[1] » ؛ فبين لهم خطأهم و أظهر لهم موضع الداء ليوضح لهم الطريق السليم و المنهج الواضح للاستفادة من النحو، فأعطى للتراكيب النحوية معطيات حية و أضاف إليها ألوانا من الدلالات وجعله المعيار السليم لإظهار المعاني في الكلام[2] .

فما طبيعة هذا النحو الذي يقصد إليه الجرجاني الذي جعل العلماء المحدثين يؤسسون على غراره نظرية نصية تعادل النظرية النصية الغربية ؟ هل هو النحو الخالص الذي مارسه النحاة القدامى؟ أم أنه النحو الذي يراه هو نحوا وفق منهجه و رؤيته الخاصة ؟

يقول الجرجاني في مقدمة كتابه و هو يصف عمله فيه « هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة ، وكل ما به يكون النظم دفعة ، و ينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له ، حتى رآها في مكان واحد ، و يرى بها مشئما قد ضم إلى معرق، ومغربا قد أخذ بيد مشرق ، و قد دخلت بأخِرَة في كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة [3] » ، يختصر الجرجاني في هذا النص كل ما جاء به في كتابه من مباحث و فصول متفرقة في عبارة واحدة هي أنها (أصول النحو جملة) فكأن الجرجاني ينظر للنحو نظرة شمولية لا تجزيئية حيث لم تعد مراعاة أواخر الكلم آخر همّه و لا التفرقة بين الجملة و الكلام و لا التفرقة بين مباحث الصرف و مباحث النحو و لا الأدوات و لا الحروف التي تدخل على الأسماء و الأفعال ... و غيرها من المباحث النحوية التي كانت

تقنن كلٌّ على حده في مؤلفات النحاة القدامى في أبواب عديدة و متفرقة ، بل إن النحو الذي يبتغيه الجرجاني نحو خالص متكامل يكون دليلا من دلائل الإعجاز التي يروم "الجرجاني" بلوغها و يؤسس على غرارها لنظرية نحوية يرتقي بها الكلام العادي الى درجة عالية من البلاغة و البيان .

إن هذه الرؤية المتكاملة للنحو التي سعى الجرجاني الى بلورتها تجسد ما أطلق عليه مصطلح " النظم " الذي يتضح مفهومه في نصوص كثيرة من كتابه نأخذ منها مثلا قوله : « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه و أصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه[4] » إن العمل بقوانين النحو و أصوله ومعرفة مناهجه ضرورة ملحة تستوجب على الناظم الأخذ بها و مراعاتها لاستقامة الكلام ؛ ذلك أن الهدف من وراء هذه الرسوم التي يجب اتباعها إنما هو بلوغ الأغراض و المقاصد انطلاقا من معرفة خواص تركيب الكلام ، وقد بيّنها "الجرجاني" من خلال الأمثلة التي قدمها في وجوه الخبر المختلفة والفروق بينها ، و الحال ووجوهه و في الشرط والجزاء وفي الحروف ومعانيه ، كما يظهر للنحو مفهوما آخر في قوله :« معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض و الكلام ثلاث : اسم ، و فعل ، و حرف، وللتعلق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام تعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه او حالا منه ، أو تابعا له صفة أو تأكيدا أو عطف بيان أو بدلا ، أو عطفا بحرف. أو يكون الأول مضافا إلى الثاني أو بان يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل ، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول [5] » يمكن القيام بعملية استدلالية انطلاقا من هذين النصين نصل من خلالها إلى المفهوم الجديد الذي يحاول الجرجاني طرحه وذلك من خلال المقدمتين الآتيتين:

المقدمة الاولى: لما كان النظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو

المقدمة الثانية : وكان النظم تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض

النتيجة: وجب أن يكون النحو تعليقا

لقد كان هذان النصان و غيرهما من النصوص منطلق الدراسات اللسانية العربية الحديثة لتأسيس نظرية نصية عربية لما فيهما من مؤشرات تدل على مفهوم النص و نحوه ولما دلّت هذه النصوص على مفهوم النص صار لمفهوم النحو معنى آخر غير الذي رسم له من قبل ، إنه "نحو المعاني" الذي يرتكز على فكرة تعليق و ترتيب الكلم بحسب ترتيبها وتعلقها في النفس يقول الجرجاني : « أما نظم الكلم فليس الامر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها نظم آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق [6]» ، ويؤكد على انه ليس الغرض من النظم هو توالي الكلم في النطق بل في تناسق دلالاتها و تلاقي معانيها على الوجه الذي يقبله العقل[7] ، ويمكننا تلخيص ما جاء في نحو الجرجاني في المخطط الآتي الذي يضم المفاهيم والمصطلحات التي أخرجت النحو من حيز الجملة إلى حيز النص حيث تتفاعل البنيات اللغوية و غير اللغوية التي تضمن تماسكه الداخلي والخارجي فالناظم إنما يتوخى في نظمه جملة القواعد والقوانين التي سنّها النحاة القدامى مع مراعاة خواص تركيب الكلام من تقديم و تأخير وحذف و زيادة ، وتكرار و إيجاز و إطناب وغيرها من الخواص مراعاة لأحوال السامعين و المتلقين لبلوغ الأغراض و المقاصد:

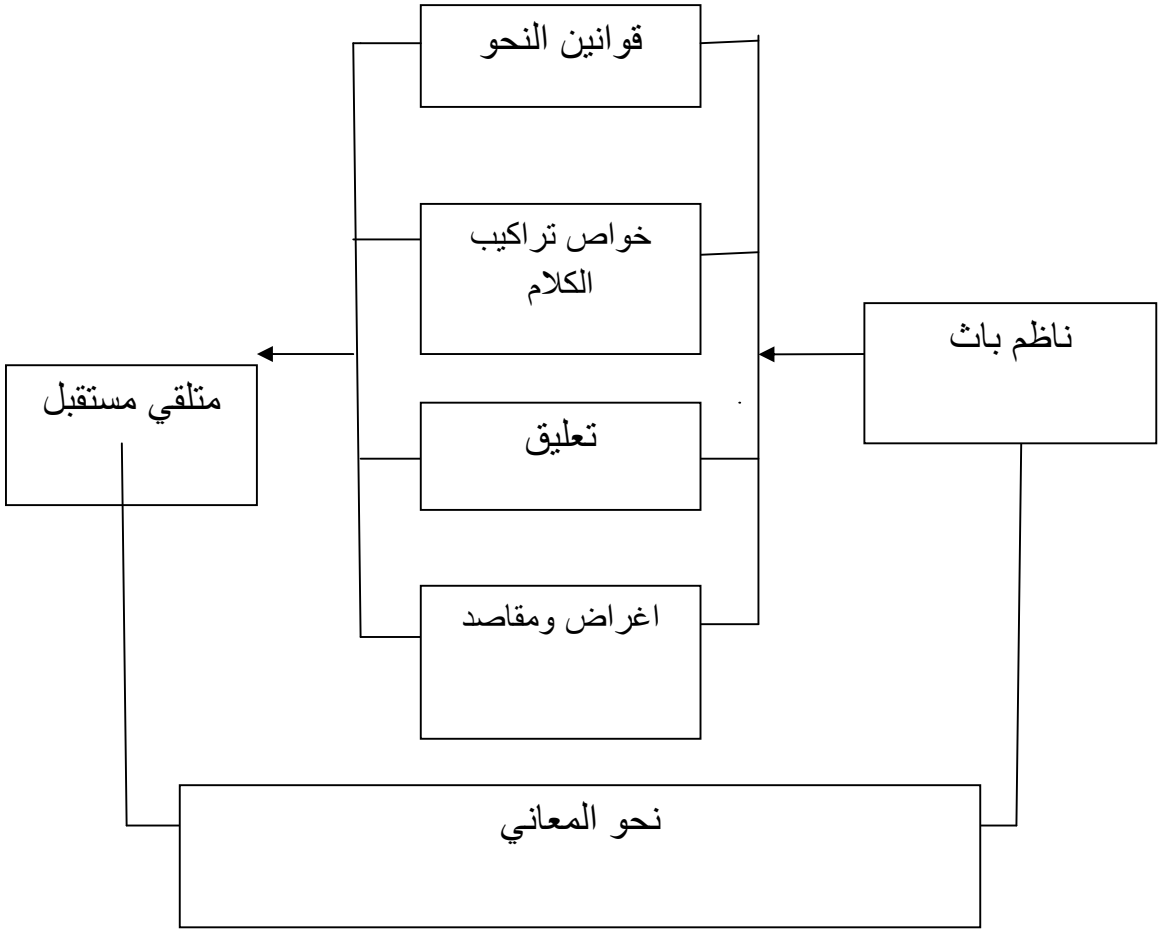

إلى جانب "علم النحو" أيضا هناك انساق معرفية أخرى ساهمت هي الأخرى في وضع ابستيمولوجيا نصية عربية نذكر منها الدراسات القرآنية المتعلقة بتفسير كتاب الله و التي تبحث في الإعجاز القرآني و الدراسات التي تبحث في استنباط الأحكام التشريعية ووضع الشروط و الضوابط كعلم الأصول الذي يعد النسق المعرفي الأكثر تأثيرا في البحوث البلاغية العربية وتطويرها نظرا لما فيه من قواعد وقوانين ومناهج نصية و عقلية .

2/علم الأصول:

أو التفكير الأصولي الخالص الخاضع لقداسة النص الديني بلفظه و معناه و أحكامه ، تأسس على يد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ) العالم الفذ بالكتاب والسنة وبفصاحة اللسان ونصاعة البيان المرجع في الرواية والسنة [8] ، فقد كان على حد رأي كثير من أهل العلم أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن[9] ، و قد عرف الإمام الشافعي بمؤلفه "الرسالة" و هو أول كتاب ألف في أصول الفقه و أصول الحديث فكان بمثابة القانون الكلي المرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة و أحكامها و معارضتها و ترجيحاتها [10] ، و ارتبط مفهوم النص في الفكر الأصولي عند الشافعي بمفهوم " **البيان**" ذلك أن القرآن نص مبين بألفاظه ومعانيه يقول تعالى في كتابه العزيز: :﴿ هَذَا بَيَانٌ للنَّاسِ و هُدًى و مَوْعِظَةً للمُتَّقِين ﴾[11] ﴿ و نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[12] ﴿ الرَّحْمَن ، عَلَّمَ الْقُرْآن ، خَلَقَ الْإِنْسَان ، عَلَّمَهُ الْبَيَان ﴾[13] كما نزل بيانا للأحكام و الشرائع من حلال و حرام و مكروه و مستحسن ومستقبح.

و البيان كما عرفه الشافعي: « اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع : فاقل ما في تلك الفروع أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه ، متقاربة الاستواء عنده ، وإن كان بعضها أشد تأكيدا من بعض . ومختلفة عند من يجهل لسان العرب »، يرى الجابري أن البيان في نص " الشافعي" انتقل من معنى المواضعة اللغوية إلى مستوى المفهوم فلم يعد البيان الذي يعني مجرد الوضوح والظهور والإفصاح فهو يدل على معان مجتمعة الأصول من أوامر ونواه [14] ، ويفصل الشافعي درجات هذا البيان فمنها الأصول و منها الفروع مفصلة بلغة مخصوصة و هي اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم و من بيان هذه اللغة ما لا يحتاج إلى توضيح يفسره ظاهر النص و منها ما يحتاج إلى اجتهاد ممن له دراية بأسرارها وأساليبها المختلفة وسعة لسانها .

و يذهب الجابري بقوله أن الشافعي في مفهومه للبيان ركز على قضية "الفهم" أي فهم كلام العرب و حسب ؛ ذلك أن الجاهل بكلام العرب وسعة لسانها لا يمكنه فهم معاني

القرآن و ما جاء به من بيان و بالتالي فقد وقف الشافعي على قوانين تفسير الخطاب[15] ، لنقل إن الكلام الجابري ينطبق على الأعجمي الذي يجهل لغة العرب فعليه أن يلتمس تعلمها ليقف على مفرداتها و أساليبها المتنوعة ليفهم ما فيها من معاني مختلفة ، أما العربي فهو أدرى بمكامن هذه اللغة و أسرارها فقد خاطب الله عز وجل العرب بلسانها و ما تفهمه من معانيها و الأكثر من هذا هو رسالة تحمل وصفا لحضارتها وثقافتها التي كانت سائدة ؛ يقول الشافعي : « فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها ، على ما تعرفه من معانيها ، وكان مما تعرفه من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرتَه أن يخاطب بالشيء منه عاما و ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأوّل هذا منه عن آخره ، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص ، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ، وعاما ظاهرا يراد به الخاص ، و ظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره . فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره و تبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله. وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ ، كما تعرف الإشارة ، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها ، لانفراد أهل علمها به ، دون أهل جهالتها . وتسمى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة– وكانت هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به– و إن اختلفت أسباب معرفتها معرفة واضحة [16] » يدل هذا النص على دراية الشافعي بسعة كلام العرب الذي يقوم على مدار الفهم و الإفهام ففي مفهومه للبيان إشارة واضحة إلى هذه القضية – التركيز على الفهم و الإفهام– ذلك أن مراعاة الخلفية المعرفية للمتلقي شرط ضروري لاستكمال عملية التواصل وتحقق الفهم و الإفهام ، وهذا ما أكدته الدراسات اللسانية المعاصرة لان عملية فهم مقاصد المتكلم و تأويلها أو تفسيرها متوقفة على الخلفية المعرفية للمتلقي ومدى امتلاكه للكفايات المطلوبة ككفاية التأويل والكفاية اللسانية و الكفاية التواصلية (البلاغية و التداولية)، و الكفاية المنطقية ، و ما يؤكد ما ذهبت اليه الدراسات الغربية "جون ليونز" lyons بقوله :« إن التمييز بين المتلقي و المخاطب المقصود ذو فائدة كبرى في التواصل ، لأن المرسل يبني

كلامه و يعدل فيه غالبا تبعا لما يعتقده عن واقع معارف مخاطبه المقصودة ، و عن وضعيته الاجتماعية [17]» ، و إن كانت الدراسات اللسانية الغربية المعاصرة قد توصلت إلى هذا المستوى من مستويات تحليل الخطاب فإن القرآن الكريم يعد النموذج الأول والمثالي بأن يؤسس عليه علماؤنا نظرياتهم اللغوية و النصية منها ؛ لاستيفائه الشروط الكاملة والمتكاملة للخطاب و لعملية التخاطب الأمر الذي لم يخف على علماء البلاغة و هم يدقون النظر في كلام الله عز وجل.

3/ العلوم العقلية (الفلسفة والمنطق):

إذا كانت بداية نشأة البيان العربي أصولية خالصة فكان الدليل الذي يتبين به الحكم هو النص اللغوي[18] ، فإنها في مراحل متقدمة ترعرعت في بيئة عقلية متأثرة بالفلسفة والمنطق حيث ظهرت فرق متكلمة كالمعتزلة وغيرها فكان ذلك واضحا في أبحاثهم ودراساتهم وعقيدتهم ، و قد تجلى هذا التأثير في النزعة العقلية التي احتكمت إلى العقل في كثير من الأمور فكان الفيصل في كثير من المسائل[19] ، فتحول البيان بالنص اللغوي إلى البيان بالدليل العقلي ، حيث غلب على البحوث البلاغية في هذه الفترة طابع الجدل والمناظرة المرتبطة بالاستدلالات العقلية الموصلة إلى الدليل و إقامة الحجة .

و إنما كان اهتمام المعتزلة بالبلاغة لأنها سلاح المناظرة والجدل لإفحام الخصم [20] ، ويبدو هذا جليا في المدونات البلاغية منذ الجاحظ (ت 255هـ) إلى غاية البحوث البلاغية المتأخرة فقد يعد الجاحظ أول شخصية متكلمة تضع اللبنة الأولى للبيان العربي في البلاغة العربية في كتابه البيان و التبيين الذي وصل به إلى قاعدة بيانية جمع فيها لطائف من نصوص مختلفة توضح كيف كان العربي يصور البيان العربي[21] ، إن القاعدة الأولى التي بنى عليها الجاحظ مفهومه للبيان إنما كانت "المعنى" الذي يرى كثير من الجهابضة انه قائم في الصدور ومتصور في الأذهان و مختلج في النفس فهو إذن مستور مخفي

ومحجوب مكنون ، والسبيل إليه إنما هو الإفصاح عنه و ذكره و استعماله [22] ، و الدلالة الظاهرة على المعنى هو ما أطلق عليه الجاحظ اسم البيان.

يعرف الجاحظ البيان بقوله : « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم و الإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك المعنى »[23] و يمكننا تلخيص ما جاء به الجاحظ في هذين النصين في الرسم الموالي

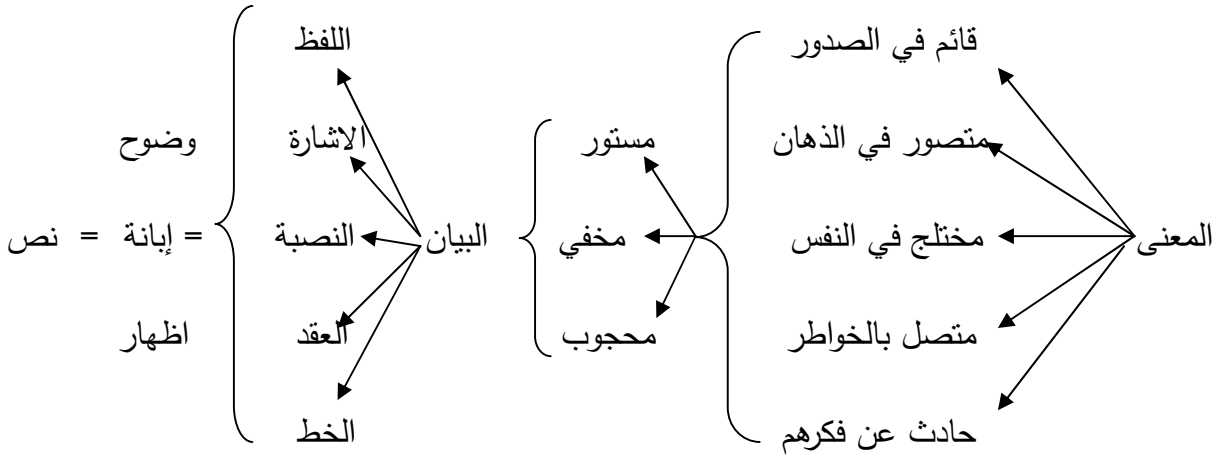

يرتبط مفهوم الجاحظ للبيان بالفكر الفلسفي القائم على تحكيم العقل و إقامة الدليل والحجة ذلك أن عصر الجاحظ عرف تطورا ملحوظا في فن الخطابة والمناظرة التي تعتمد بالدرجة الأولى على فكرة الإقناع والتركيز على السامعين ؛ لذلك نراه يركز في مفهومه للبيان على الأشياء والطرق التي ينكشف بها المعنى حيث لم يكتف الجاحظ بالدليل اللغوي

بل تعداه إلى البيان بالدليل العقلي كالإشارة باليد والنِّصبة والعقْد والخط ، الأمر الذي جعله يصفه بأنه اسم جامع لكل شيء يكشف المعنى ويكون دليلا عليه أما الغاية من وراء كل هذا إنما بلوغ الفهم و الإفهام الذي يجري بين متكلم و سامع .

إن المفاهيم التي حاول الجاحظ إرساءها اتخذها اللغويون العرب المحدثون كمؤشرات واضحة لتأسيس نظرية نصية بلاغية يكون الحجاج فيها أحد أهم مستويات التحليل النصي وهي المسألة التي توصلت إليها الدراسات النصية الغربية المعاصرة ؛ فقد سعى الجاحظ إلى تأسيس توجّه جديد للنصوص من خلال وضع شروط لإنتاج الخطاب و هو التوجه البرهاني الذي يعتمد على المقابلات و الأقيسة و الاستدلالات العقلية لأن النص فعل تواصلي موجه يهدف إلى إقناع السامع وتوجيهه إلى فعل ما أو تركه .

وقد امتد تأثير التيار العقلي المتأثر بالفكر الفلسفي إلى البلاغيين المتأخرين نجد منهم حازم القرطاجني (ت 684هـ) أحد أهم النقاد و البلاغيين القدامى الذين أسسوا لنظرية نصية عربية أعاد من خلالها بناء القصيدة العربية و ذلك بإعادة النظر في كثير من القضايا البلاغية و النقدية التي خاض فيها غيره من البلاغيين الذين سبقوه، حيث كان معلّما و موجها يرشد إلى قوانين صناعة الشعر ؛ فكان من بين ما توصل إليه "حازم القرطاجني" نظرية نصية تبحث في تماسك القصيدة العربية على مستوييها الداخلي والخارجي ، و من المؤشرات النصية في بلاغة حازم التي تدل على تأثره بالفكر الفلسفي بحثه في ما تتقوم به صناعة الشعر و الخطابة التي تعود جذورها إلى أرسطو الذي عدها « قوة تتكلف الإقناع الممكن[24] » و في محاولة الفلاسفة المسلمين لقراءة شعرية أرسطو حددوا خصوصية كل منهما وتحديد ما بينهما من تداخل ففي نظرهم أن وظيفة الإقناع تحدد سمات الخطابة ووظيفة التخييل تحدد سمات الشعر الذي يعتمد الأسلوب الشعري للتأثير في المتلقي وقد تعتمد الخطابة الأساليب الشعرية لاستمالة الجماهير ،كما أن الشعر قد يلجا إلى الأساليب الإقناعية كالاستدلال الذي يعتمد العمليات المنطقية[25]، وكلاهما يشتركان في عملية إنتاج

النصوص[26] و يلتقيان في الغرض والمقصد للتأثير في النفوس[27]والمراوحة بين المعاني الخطابية الشعرية أفضل طريقة لتحصيل الغرض المنشود، والشعر المراوح بين معانيه أفضل كما أن الخطبة التي تراوح بين معانيها أفضل من غيرها [28]، كما يبحث حازم في أنحاء التخاطب و طرق التبليغ التي تشاكل تماما أنحاء التخاطب وطرق التبليغ التي تبحث فيها النظريات النصية الغربية يقول « لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجاتهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع و إزاحة المضار و إلى استفادتهم حقائق الأمور و إفادتها وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطَب أو الاستفادة منه . إما بأن يلقي إليه لفظا يدل المخاطَب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول ، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول ، و كان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدى على جهات من التفصيل و البيان و الاستدلال عليه و الاحتجاج له»[29] .

يحاول حازم أن يبين جهات التخاطب بين السامع و المتكلم الذي يسعى إما إلى تبليغ المخاطَب معرفة ما ليفيده بها ، دون أن ينتظر ردا أو جوابا منه أو نقاشا ، و إما يسعى إلى الاستفادة منه كأن ينتظر المتكلم من المخاطَب جوابا عن سؤال أو إضافة معرفة ما ، أو تفسيرا أو تأويلا لما تلفظ المتكلم به . و يشير حازم إلى أنواع القول أو ما يسمى في التداوليات بالأفعال الكلامية المباشرة و غير المباشرة وذلك في قوله : « و كان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدى على جهات من التفصيل و البيان و الاستدلال عليه و الاحتجاج له»[30]

ثم يقسم حازم الكلام من جهة ما يؤديه المتكلم و من جهة ما يقتضيه من المخاطَب ؛ فيجعل كلام المتكلم من جهة ما يؤديه قسمان: إما أن يكون بيِّنا واضحا لا حاجة

للاستدلال عليه و إما أن يكون غامضا يطلب الاستدلال عليه و الاحتجاج له . أما كلامه فيما يقتضيه من المخاطب فقسم واحد أي إن المخاطب يملك الحرية في الرّدّ على كلام المتكلم أو تفسيره أو له أن يسكت و يذعن لما قاله المتكلم . كما يمكن للمتكلم أن يركب بين القسمين كأن يحكي ما دار بينه و بين مخاطبه [31] فيقول المتكلم قلت (كذا وكذا) فقال فلان معارضا أو مجيبا عن (كذا و كذا) .

و يمكن أن نلخص أقسام الكلام من جهة تأدية المتكلم وما يقتضيه من مخاطبه في المخطط الآتي :

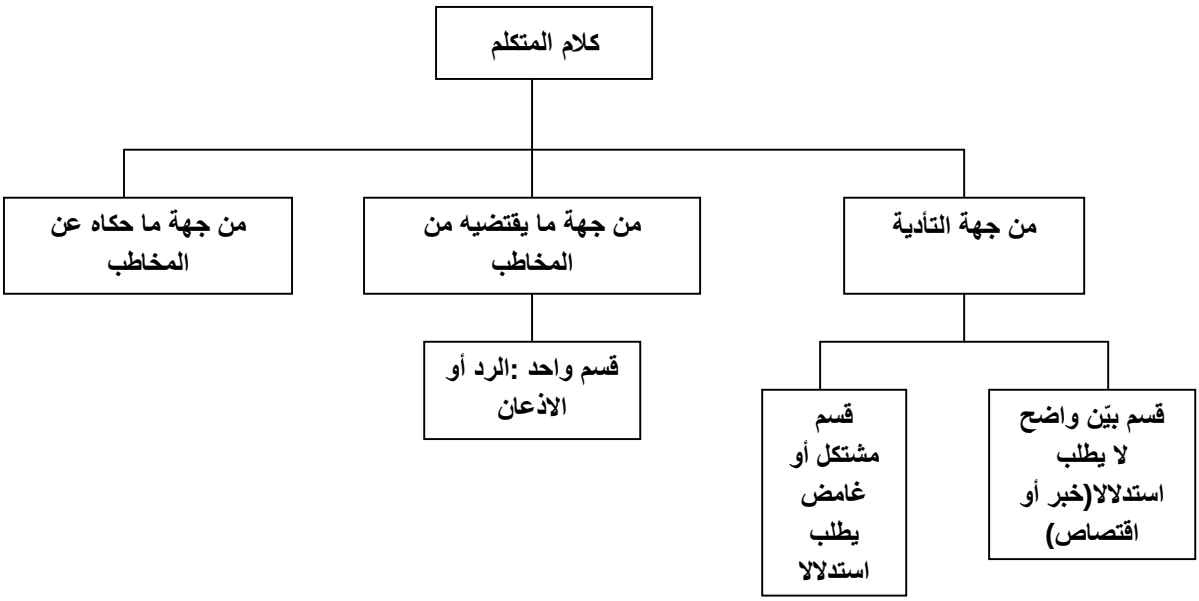

لقد أظهر تحليل "حازم القرطاجني" للقول مستوى من مستويات تحليل الخطاب التي تقف عندها الدراسات اللسانية النصية المعاصرة و هو المستوى التداولي المرتبط بالنظرية الحجاجية الذي تعتبره الأساس الذي تقوم عليه أي دراسة نصية ؛ حيث تتفاعل فيه عناصر عديدة لغوية منها و غير لغوية محاولا إبراز الأنحاء التخاطبية للمتكلمين حيث لم تعد اللغة جهاز وصف و إخبار فمع تقدم البحوث اللسانية من قبل الفلاسفة و اللغويين [32] تغيرت وجهات النظر في هذه المسألة؛ لأنهم أدركوا بأن كثيرا من الأقوال لا تتمثل وظيفتها في الإخبار و لا تصف واقعا ما كما لا تخضع لمعيار الصدق و الكذب كالأقوال الإنجازية

التي تطلب القيام بأفعال ، و الأقوال الملتبسة التي لا يمكن أن نحكم عليها أيضا بالصدق و الكذب بل تحتاج إلى تأويل ، و هناك الأقوال التقييمية التي تصدر فيها أحكاما فلا تصف واقعا كما يصعب أن نصل إلى جوانبها الإخبارية دون النظر في السياق الذي وردت فيه .

خلاصة :

ترتكز ابستيمولوجيا النص في التراث البلاغي العربي إذن على انساق معرفية عديدة لغوية وغير لغوية ذات أصول مختلفة أسهمت في التأسيس لنظرية نصية عربية على غرار النظرية النصية الغربية ؛ فلم تهدف هذه الدراسة إلى استنباط المؤشرات النصية في التراث البلاغي بقدر ما حاولت البحث في الخلفيات المعرفية الابستيمولوجية التي ارتكز عليها القدامى لتقديم مفهوم شامل و واضح للنص خاصة أن هذا النص لم يكن نصا عاديا لأنه كلام الله عز وجل الذي تأسست عليه علوم ومعارف عربية عديدة متداخلة من بينها العلوم اللغوية التي اهتمت بأساليبه و تراكيبه و مفرداته وسياقاته المتنوعة .

كذلك كان للعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق دور بارز في إثراء البحث البلاغي حيث غلب على النصوص التوجه البرهاني الذي يعتمد على الاستدلالات العقلية الموصلة إلى الدليل و إقامة الحجة لإقناع السامعين والتأثير فيهم ، و هو المستوى الحجاجي التداولي التي تبحث فيه الدراسات النصية المعاصر

الهوامش

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2، (دت)، ص38

[2] عبد الفتاح لاشين ،التراكيب النحوية من الزجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ ،الرياض،السعودية ص، 75

[3] الدلائل ص 15

[4] المصدر نفسه ، ص70

[5] المصدر نفسه ، ص 15

[6] المصدرنفسه، 51ص

[7] المصدر نفسه ، ص51

[8] ينظر محمد بن ادريس الشافعي :الرسالة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ن بيروت ، لبنان ، (دط) ،ص5

[9] ينظر المصدر نفسه ،ص 6

[10] ينظر المصدر نفسه ،ص 13

[11] آل عمران/ 138

[12] النحل / 89

[13] الرحمن /4،3،2،1

[14] ينظر ، محمد عابد الجابري ، بينية العقل العربي(دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ،ط1986،1، ط/ 2 ، 1987 ،بيروت لبنان ،ص22

[15] المرجع نفسه ، ص 25

[16] الرسالة ص 52

[17] إدريس سرحان : طرق التضمين الدلالي و التداولي في اللغة العربية و آليات الاستدلال ، ص 98.

[18] عبد الحكيم راضي ، الابعاد الكلامية و الفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ مكتبة الاداب ،ط2 ،1998،ط3 ، 2003 ص68

[19] ينظر ، حمادي صمود ي ، التفكير البلاغي عند العربي أسسه و تطوره في القرن السادس مجلة الفلسفة و الـ داب تونس العدد21، ص426

[20] المرجع نفسه ص 444

[21] شفيق السيد ،البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم ،دارالفكر العربي ، القاهرة ص64

[22] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج1، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي القاهرة ، ط7، 1418هـ-1998 ،ص 75

[23] المصدر نفسه ، ص 76

[24] أرسطو طاليس: الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت لبنان، (د ط)، 1979م، ص9.

[25]ينظر، محمد مشبال: "البلاغة ومقولة الجنس الأدبي"، عالم الفكر، العدد1، المجلد 30، ، سبتمبر 2001 م، ص 81.

[26]ينظر، محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2005م، ص17.

[27] ينظر، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، (د ط)، 1999م، ص510.

[28] حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، لبنان، ط/3 ،1986 ،ص 361

[29] المصدر نفسه ،ص 345

[30] المصدر نفسه ،ص 345

[31] المصدر نفسه ،ص 345

[32] مثل ستراوس و أوستين وسورل ...